الدرس الرابع

**مضامين شعر الخوارج**

**التعريف بالخوارج:**

الخوارج في اللغة: اسم مشتق من خرج، والخاء والراء والجيم أصل يدل على النفاذ من الشيء، يقال: خرج يخرج خروجا، فهو خارجي، والخارجيّ هو الرجل المسوَّد بنفسه من غير أن يكون له قديم، وقد أطلق أهل اللغة كلمة الخوارج على طائفة من أهل الآراء والأهواء؛ لخروجها على الدين أو لخروجهم على الناس. أو هم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفق الجماعة عليه، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم في عهد التابعين، والأئمة في كل زمان.

**نشأة الخوارج:**

بعد استشهاد عثمان بن عفان -رضي الله عنه- بايع جمهور المسلمين الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ورفض المبايعة والي الشام معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- وبدأ الخلاف، فكانت موقعة الجمل بالقرب من البصرة سنة35 ه‍، ثم تلتها موقعة صفين سنة 36ه‍، ونادى أتباع معاوية بالتحكيم، غير أن الإمام عليا -رضي الله عنه- لم يطمئن لهذا الطلب، لكنه قبل استجابة لقبول أكثر أصحابه، فبدأ الخلاف بين صفوفه فتشاتموا وتضاربوا، وأصبحت تلك المجموعات المصرة على التحكيم هي غير الراضية به، وتتهم الإمام بشتى التهم وتحمله مسؤولية آ رائهم وأفعالهم، فخرجوا عليه ولم يدخلوا معه الكوفة، بل ذهبوا إلى حروراء، ويقال إن عددهم اثنا عشر ألفا فجعلوا )شبث بن ربع( أميرهم على القتال، وأميرهم على الصلاة (عبد الله بن الكواء اليشكري( وتنادوا بأن الأمر شورى، وقالوا لا حكم إلا لله، فلما سمعها الإمام قال: كلمة عادلة يراد بها جور، إنما يقولون لا إمارة ولا بد من إمارة برة أو فاجرة، فناظرهم الإمام ذاكرا لهم الوقائع فأقروا بها، فقال لهم فعلام خالفتموني ونابذتموني؟ فقالوا: أتينا ذنبا عظيما وتبنا منه، فتب واستغفر الله نعد إليك، فقال: استغفر الله من كل ذنب، فرجعوا، ولكنهم ما لبثوا أن خرجوا مرة أخرى قائلين: إن عليا أتى أمرا عظيما حينما حكّم الرجال في الدماء، ولا حكم إلا لله، ومحا اسمه من خلافة المسلمين، فرد عليهم ابن عباس مبعوث الإمام إليهم: أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تساوي ربع درهم تصاد في الحرم، وفي شقاق رجل وامرأته، وما علمتم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمسك على القتال في الحديبية، وكذلك محا اسمه من النبوة عند صلح الحديبية، ولكنه ظل نبيا، فلما أعياهم الحق قالوا: لا تحاجوا هذا، فإنه من القوم الذين قال الله فيهم: "بل هم قوم خَصِمون"، واجتمع الحكمان في دومة الجندل في رمضان سنة37ه‍، وكانت نتيجة التحكيم مغذية للفرقة، وأعطت مبررا للخارجين عن الإمام، ولم يعد هناك أمل في عودتهم إليه.

في هذه الفترة تكوّن حزب الخوارج، وبدأت أفكاره تبرز وتنتشر بين أفراد الأمة، والناس بين مؤيد ومعارض، حيث كانت أفكارهم العنيفة المنحرفة عن فهم المسلمين، والمخالفة لرأي الجماعة، فقد كفّروا عثمان وعلياً -رضي الله عنهما- وكفروا أصحاب الجمل، واستباحوا قتل كل من لم ينضم إليهم، إذ عدوا من سواهم كفارا مرتدين.

**أهم صفاتهم وموضوعات شعرهم:**

وأحاديث كثيرة جاءت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- توضح حقيقتهم لا يسع هذا البحث عرضها ومناقشتها، وقد كانوا متحدين في بداية نشأتهم إلى ما يقرب من سنة (65ه‍) ولكنهم بعد ذلك تفرقوا وتعددت فرقهم، يقول الشهرستاني: (وكبار الفرق منهم المحكمة، الأزارقة، النجدات، البيهسية، العجاردة، الثعالبة، الإباضية، الصفرية، والباقون فروعهم ( وقد صور هذا التفرق -الذي سببه الجدال فيما بينهم- الصلتُ بن مرة الخارجي مخاطبا قطري بن الفجاءة: ] بحر البسيط[

 قُل للمحليـن قد قرَّت عُيُونُكُــمُ بفُرقة القوم والبغضـاء والهرب

 كُنَّا أُناســاً على ديـنٍ فغيَّرنـا طُولُ الجدال وخلطُ الجدِّ باللَّعب

 ما كان أغنى رجالاً ضلَّ سعيُهُمُ عن الجدال وأغناهُم عن الخُطب

ويجمعهم القول بالتبرّي من عثمان وعلي -رضي الله عنهما- ويقدمون ذلك على كل طاعة،

كما كانت لهم آراء حول الخلافة، وهم يرون أن الخلافة حق لكل مسلم، ويفضلون أن يكون غير قرشي ليسهل عزله، والخليفة ينتخبه المسلمون انتخابا حرّا، ويتفقون على أن السلطان إذا (جار وجب عزله فإن امتنع وجب قتله)

يقول عبدالله بن وهب الراسبي: ]بحر الطويل[

 نُقاتلُكُم كي تلزمُوا الحقَّ وحده ونضربُكُـم حتَّى يكُـون لنا الحُكـمُ

 فإن تبتغُوا حُكم الإله نكن لكُم إذا ما اصطلحنا الحقُّ والأمنُ والسِّلمُ

 وإلاَّ فإنَّ المشـرفيَّة محـذمٍ بأيدي رجـالٍ فيهـمُ الدينُ والعلـمُ

يقول عبدالله بن يحي الكندي مرتجزا:

 أضربُ قومًا حبطت أعمالُهُم اللهُ مولانـا ولا مولـى لهُـم

الدعوة من قبل علمائهم وأدبائهم إلى مبادئ حزبهم، والدفاع عنه، وتسفيه الخصوم، ورميهم بالكفر، وحض أتباعهم على الثورة، وإسقاط الخصوم، حيث يرون أنهم أولى بقيادة الأمة من سواهم يقول شبيل بن عزرة: ]بحر الطويل[

 ألم تر أنَّ الله أنزل نصرهُ وصلَّت قُريش خلف بكر بن وائل

ويقول عتبان بن وصيلة الشيباني: ]بحر الطويل[

 فلا صُلح مادامت منابرُ أرضنا يقُومُ عليهـا من ثقيف خطيبُ

 فإن يكُ منهُم كان مروانُ وابنه وعمـرو ومنهُـم هاشم وحبيبُ

 فمنَّا سُويـد والبطيـنُ وقعنُب ومنَّا أميـرُ المُؤمنيـن شبيـبُ

ولتمسكهم بعقيدتهم التي حرفوها وخالفوا فيها أمر الجماعة أثر غريب في التمسك بها،

والثبات عليها، فهذا حوثرة يدعوه أبوه إلى الرجوع إلى مذهب الجماعة فأبى، فقال له مخاطبا

فطرة حب الولد أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن إليه، فقال: يا أبت، أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني.

وقد بلغ هذا التمسك مبلغا كبيرا انصهرت فيه انتماءاتهم القبلية، ولم يضعفه الترف، كما حدث في الأحزاب الأخرى: الأمويين، والشيعة، والزبيريين، فدعوا إلى مذهبهم دون تفضيل لأحد منهم على أحد، فتجد الأزد من اليمن وبنو تميم من مضر يحاربون إخوانهم التابعين لبني أمية أو الشيعة أو الزبيريين، فلا أثر لجنس الإنسان أو قبيلته، يقول عمران بن حطان: ]بحرالطويل[

 فنحنُ بنُو الإسلام والله واحدُ وأولى عبادُ الله بالله من شكر

ولم يكن هذا خاصا بالرجال، فالجهاد في حق الجميع واجب، ومن يترك القتال يجب قتاله، ولذا كانت النساء ذوات شجاعة وبسالة، وكن يدافعن عن مذهبهن، ويسجلن المواقف النادرة، فقد ذكر أن غزالة زوج شبيب نذرت لتصلِّين في مسجد الكوفة، فأوفت بنذرها زمن الحجاج، حيث دخل جماعتهم وأرهبوا الجميع، حتى الحجاج تخندق في قصر الخلافة، فصلّت في المسجد بسورتي البقرة وآل عمران كما نذرت، وقد قال بعض الناس في زمنها:] بحر الوافر[

 وَفَتِ الغزالـةُ نذرهـا يا ربُّ لا تغفـر لهـا

وقد سخر عمران بن حطّان من الحَجّاج لتحصّنه وعدم مواجهته لغزالة ومن جاء معها، ووثق هذه السخرية بقوله: ]بحر الكامل[

 أسـد عليَّ وفي الحُرُوب نعامـة ربداءُ تجفُلُ من صفير الصَّافر

 هلاّ برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبُ في جناحي طائر

 صدعت غزالة قلبـهُ بفـوارسٍ تركت مدابـرهُ كأمـس الدَّابر

 ألقِ السِّلاح وخُذ وشاحي مُعصرٍ واعمد لمنزلة الجبـان الكافـر

**شعراء الخوارج وخصائصهم:**

كان للشعراء دور بارز في تحميس الخوارج للقتال، والموت في سبيل مبادئهم، والثناء، والرثاء للمضحين المخلصين من أجلها، وترغيبهم في الموت لينالوا الجنة من أقصر الطرق، وتبعا لتعدد الخوارج وتعدد فرقهم كثر شعرهم وشعراؤهم، غير أن من أشهر شعرائهم عمران بن حطان، وقطري بن الفجاءة، والطّرمّاح بن حكيم، واذا استثنينا الطرماح وجدنا بقية شعرائهم -حتى من لم نذكر- يغلب على شعرهم أغراض الحماسة والرثاء والزهد، وحماستهم لا تحركها العصبيات القديمة- عصبية القبيلة- بل تحركها عصبية جديدة أيدولوجية وسياسية، ترفع من الدين شعارا، ويجاهدون في سبيل فكرتهم وعقيدتهم التي يرونها بعين الرضى ومفتاح الجنة، كما أن شعرهم في رثاء إخوانهم اتخذ منهجا مختلفا عما ألفه السابقون، فهو يصور شعورا حزينا لفقد الأحبة، ولكنك لا تجد فيه بكاءً يعدد محامدهم التي يرونها دنيوية، كالنجدة والكرم ونصرة المظلوم وغيرها، بل تجد لديهم ذكرا لصفات يدّعون أنها لهم، من تقوى، وورع، وزهد في الدنيا، وانصراف للآخرة، والزهد في الدنيا يمثل جزءاً من عقيدتهم، فالعيش في الدنيا يرونه شقاءً وعذاباً، فهم في دعوة مستمرة لتركها، والابتعاد عن مباهجها، ويجب أن يكون الموت حاضرا في كل أوقاتهم، وخاصة تحت ظلال السيوف.

يقول مالك بن الوضاح: ]بحر البسيط[

 إنِّي لبـائع ما يفنـى بباقيةٍ ولا يُريدُ لدى الهيجاء تربيضاً

ويقول الطرماح بن حكيم: ]بحر البسيط[

 لقد شقيتُ شقـاءً لا انقطاع لـه إن لم أفُز فوزةً تُنجي من النَّـار

 والنار لم ينج من روعاتها أحـد إلاّ المنُيبُ بقلب المخلص الشَّاري

**خصائص شعر الخوارج:**

تميز شعر الخوارج في مجمله بعدة خصائص، م يزته عن كثير من شعر غيرهم، ويمكن تصور خصائص شعرهم في:

**أولا: الدعوة للتمسك بعقيدتهم:**

يصور شعرهم التمسك بعقيدتهم التي تدعوهم لنبذ الدنيا والإسراع في نيل الآخرة فهم يرون أن من مات منهم حقق سعادته الأبدية وهذا واضح لديهم حتى في رثاء الأمهات لأبنائهن مثل عمرة أم عمران الراسبي حيث رثته بقولها) 29 (: ]بحر البسيط[

 اللهُ أيَّد عمـرانًـا وطهّـره وكان عمرانُ يدعُو الله في السَّحر

 يدعُوهُ سرّا وإ علاناً ليرزُقه شهـادةً بيـدي ملحـادةٍ غُــدر

وقد بالغوا في هذا التمسك حتى أباحوا قتال المسلمين بمبدأ تكفيرهم رغم إحسانهم لمن لا يوحدون الله، يقول الوليد بن طريف) 30 (: ]بحر الوافر[

 ستعلمُ يا يزيدُ إذا ا لتقينا بشط الزّاب أيّ فتًى يكُونُ

كما أن سبرة بن الجعد وهو أحد شع ا رئهم كان سمي ا ر للحجاج وهو لا يعلم حقيقته، ثم تركه خفية، تاركا قصيدة يكفر فيها مخالفيه من أهل الإسلام ويلعنهم، والتي منها: ]بحر الطويل[

 فمن مُبلـغُ الحجَّـاج أن سميـرهُ قلى كُلَّ دينٍ غيـر دين الخـوارج

 رأى النَّاس إلاّ من رأى مثل رأيه ملاعيـن ترّاكيـن قصد المناهـج

 ولا خير في الدنيا إذا الدين لم يكن صحيحا ولم يصمد لقاصد المخارج

**ثانيا: الزهد:**

يتميز شعر الخوارج بكثرة الدعوة إلى الزهد، وترك الدنيا، فهم لا يتناولونها إلا كونها نقيصة، ولا يجب الالتفات إليها تحت أي مطلب، يقول الصحاري بن شبيب: ]بحر المديد[

 إنّني شارٍ بنفسي لربّي تاركٌ قيـل لديهـم وقالا

 بائعٌ أهلي وماليَ أرجو في جنان الخلد أهلا ومالا

ويقول الشاعر المُرادي: ]بحر البسيط[

 إني لبائع ما يفنى لباقية إن لم يعُقْني رجاء العيش تربيصـا

 وأسأل الله بيع النفس محتسبا حت ألاقي في الفردوس حرقوصا